التغير الثقافي في المجتمع الصحراوي
« وادي سوف نموذجا »

بقلم
أ . د/ حسان الجيلاني
قسم الإعلام والاتصال - جامعة بسكرة - الجزائر

ملخص

يعتبر التغير الاجتماعي والثقافي سنة الحياة والكون ، فكل شيء يتغير في الحياة، ولا شيء يبقى على حاله، لذلك فإن بحثنا هذا يدرس ميكانيزمات التغير ونظرياته، وطرقه، ووسائله، وعوامله، كل ذلك في تطبيقها على حالة مجتمع وادي سوف كنموذج للتغير الذي يشهده العالم في جميع مجالات الحياة، فهل التغير من ناحية نظرياته، وأسسه، وقواعده ينطبق على حالة وادي سوف ... ؟ وهل المجتمع السوفي يشهد حالة من التغير الثقافي، والاجتماعي .... ؟ هذا ما يحاول البحث الإجابة عليه.

Résumé :

Le changement social et culturelle c'est un principe de vie , et rien ne reste a son état , cette recherche étudie le mécanisme de changement et ses théories , et sa manière;et son facteur ,tout sa lorsqu'on l'applique sur l'état de oued souf comme modèle échantillon,on pose les question est ce que le changement et sa théorie, et ses règles , sont ils appliqués sur l'état de oued souf …!Et est ce que la société soufi passe dans cet état de changement culturelle et sociale …! Cette recherche essaye de répondre a ces question.

تمهيد

يعتبر التغيّر سنة الحياة والكون، وقد ذهب عدد كبير من الباحثين والعلماء إلى أن الثابت الوحيد في هذه الدنيا هو التغير، فلاشيء يظل على حاله. كما اكتشف

العلم الحديث أنه حتى المادة التي كان يُعتقد بجمودها وثباتها تم التأكيد على أنها متغيرة، ومتبدّلة من حال إلى آخر.

وإذا كان هذا التغيّر حاصل في المادة، ففي الحياة الاجتماعية يكون أكثر وضوحا.

إن الإنسان دائم التغيّر والتحول، وفي المجتمع الجزائري يعتبر هذا التغيّر صفة مميزة له، وعاملا من عوامل تطوّره في بعض الأحيان.

ونظرا لاتساع هذا الموضوع وأهميته فإننا سنحصره في المحاور التالية:

أولا: تحديد بعض المفاهيم كالتغير، والثقافة، والفرق بين التغير الثقافي والاجتماعي، وما الذي يتغير في الثقافة. وأخيرا تطرقنا إلى تعريف المجتمع الصحراوي المقصود بالبحث، وحاولنا التركيز على مجتمع وادي سوف باعتباره أولا يمثل المجتمع الصحراوي أحسن تمثيل، وثانيا باعتباره يشهد تغيّرات جذرية، وثالثا لم يسبق أن تناوله أحد بالدراسة والبحث خاصة من الجانب السوسيوثقافي.

كما تناولنا لمحة تاريخية عن مجتمع وادي سوف وأهم الأجناس الوافدة عليه منذ التاريخ القديم، وكيف تصاهرت ثقافات هذه الأجناس المختلفة، وتولدت عنها الثقافة الحديثة التي يشهدها المجتمع السوفي.

وأخيرا تعرضنا إلى عامل أساسي أسهم بدور فعال في عملية التغير الثقافي وهو عامل الهجرة الوافدة إلى الوادي من القطر التونسي في سنة 1962 مع استقلال البلاد. هذه الهجرة التي لعبت دورا حاسما في تغيير الكثير من عادات وتقاليد أهل سوف.

ثانيا: لقد قسمنا التغير الثقافي بدوره إلى ثلاث موضوعات هي كالتالي:

الموضوع الأول: تغير الجانب المعنوي (السلوكي)، وتناولنا فيه عادات الطعام والنوم واللباس ودورة الحياة من ميلاد وزواج ووفاة بين القديم والحديث، وما الذي تغير في هذه العادات. وحاولنا في بعض الأحيان قياس درجة هذا التغير.

الموضوع الثاني: التغير في الجانب المادي (التكنولوجى)، وركزنا على التغير الطارئ على وسائل النقل والأواني والأدوات المستخدمة في الحياة اليومية، كما ركزنا على الهوة الثقافية أو التخلف الثقافي بين الجانب المادي والمعنوي للثقافة.

الموضوع الثالث: التغير في الجانب الإبستيمولوجي (المعرفي)، وتناولنا فيه محور التعليم والإعلام والتراث الشعبي.

المبحث الأول : تحديد بعض المفاهيم

أولا : التغير الاجتماعي

تذهب آراء الكثير من علماء الاجتماع إلى أن التغير الاجتماعي سنة الحياة والكون، وأنه لا شيء ثابت لا يتغير. فالحقيقة الثابتة أو المبدأ الذي ربما لا يتغير هو مبدأ التغير نفسه فهو الحقيقة الثابتة الوحيدة التي لا تتحول.

وقد عرفت الإنسانية مبدأ التغير منذ القديم حيث أدرك الإنسان البدائي بثاقب بصيرته أن الحياة تتبدل، وأننا كما قال الفيلسوف اليوناني قديما «لا نسبح في نفس النهر مرتين»، لذلك فالتغير هو سنة الحياة والكون.

وقد كان هذا المبدأ شاملا لكل ما هو معروف في الوجود، فلا الجبال ولا الأراضي ولا الصخور يمكنها أن تثبت على حالة واحدة.

وقبل الخوض في تعريفات التغير الاجتماعي تجدر التفرقة بين عدة مفاهيم فقد نجد أنفسنا أمام الكثير من المفاهيم المتداخلة مع التغير Changement ، فهناك مثلا التطور Evolution، والتقدم Progrès، والنمو Développement ، وحول هذا الموضوع يرى بوتومور Bottomore بأننا نلاحظ مفاهيم التغير والتطور والتقدم والنمو تختلط في بعض الأحيان، أو يربط الفكر بينها في موضوع واحد. وكأن يحدث في حالات أخرى أن يفرق العلماء بينها، ولكنها كانت تعتبر مصطلحات مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا منطقيا[1].

وعلى الرغم من ذلك فإنه يجدر بنا التفرقة بين هذه المفاهيم، فالتطور والتقدم يدلان على التحول في الاتجاه الأفضل والأحسن أي التقدم نحو الأمام، فهو تدرج من حال إلى حال أفضل منه. أما إذا انتقلنا إلى تعريف التغير وجدناه يعني تحولا من حال إلى آخر، وقد يتخذ هذا التحول أشكالا مختلفة، فقد يكون تحولا عميقا في شكل ثورة أو انتفاضة، وقد يأخذ شكلا تدريجيا فيصبح إصلاحا. وقد تطرق العلماء إلى تحليل وتفسير التغير فاختلفت الآراء وتعددت المذاهب. وسوف نتناول هذه الآراء في النقاط التالية:

1/ هناك زاويتين افتراضيتين مختلفتين تحاولان تفسير التغير (الأولى زاوية القائلين بأن مجمل المجتمعات تتوجه ضرورة نحو حالة مثالية أفضل، والثانية زاوية القائلين بأن التغير هو تراجع ونكوص)[2].

إلا أننا نقف من هاتين الزاويتين موقف الرابط فلا نعتبر كل حالات التغير نكوصا، ولا نفسرها على أساس التطور، فأحيانا تشكل حالة التغير تطورا وتقدما،

وأحيانا أخرى تظل مجرد تحول من حالة إلى أخرى دون تفسيرها على أساس التطور أو النكوص، وفي بعض حالاته يعتبر التغير نكوصا.

2/ لا يمكن تفسير التغير على أساس سبب مهيمن، فالكثير من الأسباب المتداخلة والمتشابكة تحدث التغير كما أن هناك أنماطا داخلية أو خارجية أو مختلطة، كما أن مسارات التغير قد تكون أحادية الخط أو دائرية أو تكرارية، ويمكن توقع حدوث بعضها كما يصعب توقع حدوث البعض الآخر منها .(3)

ومنه نخلص إلى تحديد التغير بأنه كل تحول يحدث في النظام الاجتماعي سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية معينة أو محددة، سواء كان ذلك في المجتمع المحلي الحضري أو المجتمع العام؛ فإن أي تغير يحدث لا بد أن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة ولم يعد التغيير ظاهرة مرضية تصيب المجتمع وإنما هو ظرف ضروري ومقرر دائم الحدوث.

فالتغير هو نوع من التطور الذي يحدث تأثيرا في النظم؛ أي: يؤثر في البناء ووظائفه، وهو نتيجة عوامل ثقافية واقتصادية وسياسية تتداخل بعضها مع بعض.

إن التغير تحول يصيب النظم والقيم والمعايير السائدة لدى أفراد المجتمع، وهو نوعان: مادي ومعنوي حيث يتضمن الأخير تغير اتجاهات الناس وقيمهم وعاداتهم وسلوكاتهم.

ثانيا : الثقافة

ما يميز الإنسان عن الحيوان هو موضوع الثقافة، إذ إن الحياة الإنسانية تتميز بثقافتها والفارق الأساسي بين الإنسان والحيوان يتمثل في ذلك الفعل الذي يحاول كل منهما إشباع حاجاته عن طريقه، فيلجأ الحيوان إلى الغريزة في إشباع غرائزه، في حين يلجأ الإنسان إلى العقل وإلى الإبداع. وهي طرق تحقق له إشباع الحاجات بسهولة ويسر، وتكثر الطرق والأساليب التي ينقلها عن الأجيال السابقة والتي ينقلها بدوره إلى الأجيال اللاحقة وهذه الأساليب والطرق هي التي نطلق عليها اليوم بالثقافة.

ولذلك فهي تتميز بثلاث خصائص هي:

1. إنها اختراع واكتشاف إنساني، فليس للحيوان ثقافة، لأنه يعيش على الغريزة، فالثقافة تتميز بأنها إنسانية.

2. إنها تنتقل من جيل إلى جيل على شكل عادات وتقاليد ونظم وقوانين، وكل جيل يضيف إليها نماذج جديدة، كما قد تنتقل من وسط اجتماعي إلى آخر.

3. إنها قابلة للتعديل والتغيير، إذ يلجأ كل مجتمع وكل جيل إلى تغيير نماذجه وفق ما يحيط به من ظروف خاصة [4].

كما قسم علماء الاجتماع الثقافة إلى نوعين هما: الثقافة المادية والثقافة المعنوية:

1/ الثقافة المادية : وتتمثل في كل ما يصنعه الإنسان لسدّ حاجاته اليومية، من ملابس وأسلحة وآلات ومعابد ووسائل نقل واتصال، وكل ما يخترعه الإنسان من أساليب وسائل مادية تلبي حاجاته المتزايدة.

2/ الثقافة المعنوية : وتتمثل في الأفكار والعادات والتقاليد والقيم والعلوم والفنون والشعائر والطقوس، وحتى السحر والشعوذة، وكل ما ينتجه الإنسان من معاني وقيم ودور يؤديه في الحياة الاجتماعية. وتعتبر الثقافة المعنوية أبقى وأدوم من الثقافة المادية التي هي دائمة التحول والتغير.

ثالثا: تعريف الثقافة

من حيث المفهوم : من العسير وضع تعريف جامع مانع للثقافة نظرا لتعقدها وشموليتها والتعاريف الكثيرة التي صاغها علماء الاجتماع والأنثربولوجيا ساعدت لإثراء موضوع الثقافة حيث إنها في الأخير تكمل بعضها، ونظرا لكثرة هذه المفاهيم فسوف نتوقف عند بعضها، ونحاول في الأخير الخروج بتعريف يتعلق بموضوع بحثنا:

1/ الثقافة: هي منظومة القيم الأساسية للمجتمع، وتنزع ثقافة المجتمع إلى الانتظام في مجموع عناصر منسقة، ومتتامة فالكل هو المطمح الثاني للأناسة فهذه ترى في الحياة الاجتماعية منظومة تترابط كل جوانبها ومعالمها ترابطا عضويا [5].

2/ ولعل التعريف المناسب، والذي وجد شبه اتفاق بين علماء الاجتماع والأنثربولوجيا، ما وضعه تايلور(1832-1917) الذي يعرّف الثقافة والحضارة بأنها ذلك الكل المعقد الهائل الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والقواعد الأخلاقية والقانونية والأعراف وكل السلوكات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع [6].

3/ كما قدم "فيرث" تعريفا آخر للثقافة يقول فيه (إذا نظرنا إلى المجتمع على أنه يمثل مجموعة من الأفراد، فإن الثقافة طريقتهم في الحياة، وإذا اعتبرناه مجموعة العلاقات الاجتماعية فإن الثقافة هي محتوى هذه العلاقات، وإذا كان المجتمع يهتم بالعنصر الإنساني وبتجميع الأفراد والعلاقات المتبادلة بينهم فإن الثقافة تعني بالمظاهر التركيبية المادية واللامادية التي يتوارثها الناس ويستخدمونها ويتناقلونها)[7].

4/ يعرف كل من كروبير A.I Krober وكلاكهون Klukhon الثقافة بأنها تتألف من أنماط مستمرة وظاهرة للسلوك المكتسب والمنقول عن طريق الرموز، فضلا عن الإنجازات المتميزة للجماعات الإنسانية ويتضمن ذلك الأشياء المصنوعة، ويتكون جوهر الثقافة من أفكار تقليدية وكافة القيم المتصلة بها (8).

رابعا: التفرقة بين التغير الثقافي والتغير الاجتماعي

أدى عدم التحديد الدقيق للكثير من المفاهيم إلى خلط كبير بينها. ومن ذلك نجد من يعتبر التغير الثقافي هو نفسه التغير الاجتماعي، كما أثير جدل كبير حول أيهما أوسع انتشارا وأكثر شمولية.

ولا داعي للدخول في تلك التفاصيل والجدل الطويل، ولكننا مباشرة بعد أن نقوم بتعريف التغير الثقافي والتغير الاجتماعي نستطيع أن نستخلص التفرقة بينهما. فالتحول الاجتماعي هو كل تحول يحدث في النظم والإنسان والأجهزة الاجتماعية، سواء كان ذلك في البناء أو الوظيفة خلال فترة زمنية محددة. ولما كانت النظم في المجتمع مترابطة ومتداخلة ومتكاملة بنائيا ووظيفيا فإن أي تغيير يحدث في ظاهرة لا بد أن يؤدي إلى سلسلة من التغيرات الفرعية التي تصيب معظم جوانب الحياة بدرجات متفاوتة (9).

فالتغير الثقافي أشمل و أعم من عملية التغير الاجتماعي، إذ يتناول كل تطور أو تحول يحدث في عنصر من عناصر الثقافة سواء كان ذلك في الفن أو الفلسفة أو العلم أو الصناعة، كما يشمل فوق ذلك كله مجمل التغيرات التي تحدث في أشكال وقواعد النظام الاجتماعي(10) .

وعليه فالتغير الثقافي بمفهومه الواسع يعني كل تحول يحدث في ثقافة المجتمع المادية والمعنوية، فالتغير الاجتماعي يعتبر تغيرا ثقافيا، فهناك نوع من التداخل والتشابك، ولا يمكن الفصل بينهما إلا من أجل البحث والتحليل العلمي، فكل التغيرات الاجتماعية ترد إلى التغيرات الثقافية إذا اعتبرنا أن الثقافة أشمل وأعم في مفهومها من التغير الاجتماعي.

خامسا: ما الذي يتغير في الثقافة ؟

ولكن ما هي أوجه التفرقة بين الأنماط الثقافية التقليدية والحديثة ..؟ وكيف نستطيع أن نميز بينهما ؟ بمعنى: ما هي المؤشرات التي تدل عن التغير الحاصل في ثقافة المجتمع ونظمه؟.

حاول كثير من العلماء وضع مؤشرات تدل على هذا التغير، بل ذهبت بعض الأبحاث إلى محاولة تكميم هذه المؤشرات وقياسها بصورة عددية، ولكن ذلك ظل مجرد محاولات، ولعل أهم ملامح الأنماط الثقافية القديمة قبل أن يحدث عليها أي تغيير تتمثل في :

أولا : بساطة النظام التكنولوجي واتسامه بعدم التعقيد والنمو.

ثانيا : انخفاض المستويات التعليمية والتربوية.

ثالثا : محلية العلاقات الاجتماعية، أي: اقتصارها على داخل النسق.

رابعا: سيادة العلاقات الاجتماعية الأولية.

خامسا: عدم توفر الرشد الاقتصادي .

سادسا: نقص القدرة على الانفتاح العقلي، أو إمكانية التعاطف مع الأدوار الجديدة.

أما الأنماط الثقافية بعد وقوع التغيير فتتمثل في التجديد والنمو والرشد والتقدمية[11].

وبالإضافة إلى ذلك نرى أن التغير ـ كما ذكرنا سابقا ـ قد يكون نكوصا، وتخلفا، ورجعة إلى الوراء، كما حدث بالجزائر في عقد التسعينات حيث تغير المجتمع ولكنه نكوص إلى الوراء.

سادسا: المجتمع الصحراوي

بما أن وطن الجزائر فسيح وشاسع، وبما أن المجتمع الصحراوي نفسه يختلف باختلاف موقعه، فهناك الغرب والوسط والشرق، وتسهيلا لمهمة البحث، ونظرا لمعرفتنا بالمجتمع الصحراوي الشرقي أكثر، واحتكاكنا به، لذلك رأينا أن نركز بحثنا حول المجتمع الصحراوي الشرقي والذي يبدأ من "بسكرة" شمالا، وينتهي إلى "وادي سوف" في الجنوب الشرقي، إلى "ورقلة" و"غرداية" و"الأغواط" في الجنوب الأوسط. كما أني سأركز على التغير الثقافي لمجتمع "وادي سوف" حيث عاصرتُ الكثير من التغيرات التي طرأت عليه، وكنتُ في بعض الأحيان متفاعلا مع الكثير من تلك التغيرات.

وقبل الدخول في تفاصيل التغيرات الثقافية التي طرأت على هذا المجتمع، لابد أن نتوقف عند الجانب البيئي ونعرف بموقع ولاية "وادي سوف".

أ/ البيئة الجغرافية: تقع ولاية "وادي سوف" في العرق الشرقي للصحراء الجزائرية الشاسعة، وتحدها شمالا "بسكرة" و"خنشلة"، وشرقا كل من الجنوب

التونسي و"تبسة"، وغربا "تقرت" و"ورقلة"، وجنوبا "حاسي مسعود" و"غدامس" (الليبية).

هذا بالنسبة للموقع الجغرافي. أما إذا حاولا الغوص في المحيط البيئي ومدى تأثيره على السلوك الثقافي وحتميته فإننا لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن البيئة الجغرافية الواحدة تعتبر من أكبر العوامل التي تعمل على التغيرات الثقافية، وقد تقف حائلا دون ذلك، ولن نتحدث هنا عن تأثيرها في مجالات الحياة المختلفة كالصناعة والزراعة والاقتصاد، ولكن سوف نركز على دور البيئة وتأثيرها الثقافي الذي ينعكس على سلوك الأهالي.

لقد ثبت بالأدلة أن الطبيعة تؤثر في السلوك الإنساني، وهذا الرأي قال به الأقدمون منذ أرسطو إلى غاية ابن خلدون.

كما ذهب بعض الباحثين إلى أن البيئة الجغرافية لا تسمح بإمكانية ظهور ثقافة معينة بل إنها تفرض ذلك إلى حد كبير[12]. وهذا ما يسمى بالحتمية الجغرافية وهي لا تقتصر على الإنسان وثقافته فحسب بل تأثيرها يتبدى حتى في الحيوانات والحشرات والنباتات، فللصحراء حيوانات تختلف في لونها، ومنظرها عن حيوانات المناطق الباردة، بل تتميز صحراء "وادي سوف" ببعض الحيوانات غير الموجودة في مناطق أخرى كالزواحف ومنها: "الشرشمان" مثلا، وبعض الطيور النادرة التي لا تستطيع العيش إلا في البيئة الجغرافية لوادي سوف.

وإذا كانت منطقة "سوف" تتميز بفصلين طوال السنة، وهما فصل البرودة الذي يقتصر على ثلاثة أشهر تقريبا، وفصل الحر الذي قد يمتد إلى تسعة أشهر؛ فإن ذلك قد لعب دورا أساسيا في التأثير على السلوك والثقافة، بل وأدى في بعض الأحيان إلى نوع من إعاقة الإبداع، وسيطرة نسبية لثقافة الخضوع والسلبية.

فالثقافة السوفية متأثرة إلى حدّ بعيد كما هو الشأن بالنسبة للثقافات العالمية، بالمناخ، والبيئة الطبيعية.

بل قد نذهب مع ابن خلدون في قناعاته بحتمية الظروف الطبيعية على الإنسان فنجده يبالغ في ذلك حتى فاق من سبقه من فلاسفة الحتمية، فهو يربط بين الطعام والذكاء، ويفسر ذكاء بعض الشعوب إلى نوع الأطعمة التي تتناولها.[13]

وإذا كنا نؤيد التأثير الذي تتركه البيئة على ثقافة الشعوب وإبداعها، فإن هذه الظروف لا ينبغي أن تقف حاجزا عائقا دون التغير والتطور، فالفكر الغربي ظل يصور لنا أن سكان المناطق الحارة في إفريقيا مثلا هم أقل ذكاء من شعوب المناطق المعتدلة، وبالتالي فإن

الإبداعية تقل عند الشعوب التي تتسم طبيعتها بالحرارة الشديدة، وهذا الرأي فيه الكثير من التطرف والمبالغة، ذلك أن التجربة أثبتت أن سكان الصحراء الجزائرية "حيث تسيطر الحرارة المرتفعة صيفا" لا يقلّون ذكاء وفطنة وإبداعا عن نظرائهم سكان الشمال، بل نجد سكان الجنوب أكثر تفوّقا في كثير من العلوم وفي بعض مجالات الحياة، كالتجارة التي يتفوق فيها أهل "وادي سوف" و"وادي ميزاب" (سكان غرداية).

ويردد سكان الشمال مثلا يدلّ على تفوق أهل سوف على الطبيعة فيقولون: "كل آفة وخلق لها ربي آفة وحتى الرمل خلق له ربي السوافة"، وهو يدل على سيطرة أهل سوف على البيئة وتحكمهم في مسارها، خاصة تحرك الرمال، والرياح العاتية ، والأمطار...الخ...

ب/الأجناس: نظرا للموقع الاستراتيجي الذي تحتله "وادي سوف" فقد تعاقبت عليها أجناس كثيرة ابتداء من البرابرة القدماء إلى الكنعانيين والوندال والعرب المسلمين والفرنسيين، وغيرهم، إلا أن الاستقرار الحقيقي شهدته المنطقة مع مجيء وفود الهلاليين الذين توزعوا على أراضي "سوف" وأسسوا المدن، وزرعوا الأرض واستقرت أحوالهم، وذلك بداية من القرن الثاني عشر الميلادي.

لقد استقر الإنسان بوادي سوف منذ عدة قرون، وبدأ يصنع ثقافته على مرّ السنين، وكان هدفه الأساسي هو التكيف مع البيئة عن طريق توفير حاجياته الأساسية من مأكل ومشرب، وملبس ومسكن.

وعاش السوفي حيناً من الدهر معتمدا على الصيد وجمع الثمار، وكانت ثقافته تزداد عمقا ووعيا، وبدأ في تجاربه الأولية المتعلقة بممارسة الزراعة والرعي، حيث عرف الإنسان السوفي الأول كيف يقيم مسكنه الذي يقيه حر الصيف، وبرد الشتاء وقد أوصلته ثقافته إلى انجاز الزرائب وهي مساكن تصنع من أعمدة وسيقان النخيل المتوفر في المنطقة. وهنا ظهر مستوى ثقافي جديد تمكن الإنسان بواسطته من الاستقرار والانسجام مع الطبيعة، مع العلم أن الإنسان الأول الذي استوطن هذه الأرض لم يعرف الاستقرار نهائيا بها إلى زمن مؤرخ المنطقة الشهير الشيخ محمد العدواني. كما عرف المجتمع السوفي التكتل في قرى زراعية: "الزقم"، "قمار"، "حاسي خليفة"، "المقرن"، "المغير"، "جامعة"، ...الخ.

وأصبحت مدينة الوادي (وادي سوف ووادي ريغ) من أهم الحواضر في كثافة السكان، والعمران.

لقد تصاهرت على أراضي سوف الكثير من الثقافات بما تحمله من عادات وتقاليد وقيم وأعراف. ونستطيع أن نحصر هذه الثقافات فيما يلي:

أولا: ثقافة البربر القدماء الذين وفدوا إلى "سوف" منذ أقدم العصور ولازالت آثارهم موجودة إلى اليوم، فهناك الكثير من أسماء الأماكن المعروفة إلى اليوم كـ : "تكسبت"، و"تاغزوت"، و"الدريميني" ... وغيرها، وحتى أسماء بعض التمور مازالت إلى اليوم مشهورة بأسمائها الأمازيغية ك: "تكرمست"، و"تفزوين"، و"تفرزايت" ... وغيرها.

ثانيا: الثقافة التالية التي انصهرت مع ثقافة البربر هي للعرب الهلاليين الذين دخلوا مع البربر في صراعات، ثم بمرور الزمن اندمج الجميع في وحدة، حيث استطاع البربر أن يعتنقوا الإسلام وأن يتقنوا العربية، وتصاهروا مع العرب. ومن القبائل العربية التي استقرت بوادي سوف من بني هلال نذكر منهم: "طرود"، و" عدوان"، الذين مازال أحفادهم يعيشون إلى اليوم.

ثالثا: ثقافة الزنوج أو السود الوافدين من السودان، وليبيا، وبعض البلدان الإفريقية الأخرى.

رابعا : الاحتلال الفرنسي الذي حمل عناصر ثقافية جديدة، وإن كان اعتناقها من طرف الأهالي قليل، وانسجامها مع الثقافة السوفية ضعيف إلا أنها تركت بصمات واضحة لا يمكن إنكارها. كل تلك الثقافات تصاهرت، واختلطت فيما بينها وأنتجت ما يعرف اليوم بالثقافة السوفية التي تلاقحت فيها الكثير من العناصر وتشكلت عادات أهل سوف من كل هذه العناصر والفصائل، وإن كنا نرى أن غلبة العنصر العربي الإسلامي على كل تلك العناصر أمر ظاهر للعيان فلا زالت بسوف إلى اليوم الكثير من العادات والتقاليد والقيم التي ترجع بأصولها إلى الهلاليين والفاطميين والعرب المسلمين بصفة عامة، خاصة المتعلقة باللباس وعادات النوم وتقاليد الزواج والميلاد والتداوي بالأعشاب وغيرها.

ج/الهجرة : لم تتوقف الهجرات على مر التاريخ من وادي سوف خاصة إلى تونس وليبيا والمدن الجزائرية، ولكن الهجرة التي شهدتها سوف مع بزوغ فجر الاستقلال في صائفة 1962 هي أكثر الهجرات تأثيرا في ثقافة سوف ذلك أن هذه الهجرة كانت أعمق تأثيرا للأسباب التالية :

1/ المهاجرون الذين رجعوا إلى أرض سوف وهم أبناؤها وليسوا غرباء عنها فقد قضوا سنوات طويلة خارج الوطن خاصة بتونس بحثا عن الرزق الذي ضيقه الاحتلال الفرنسي عليهم.

2/ هؤلاء المهاجرون حملوا ثقافة وعادات البلدان التي كانوا يعيشون فيها.

3/ بما أن الكثير من عادات هؤلاء المهاجرين كانت أحسن حالا من العادات القديمة لأهل "سوف" خاصة فيما يتعلق بالطبخ الطعام والتنظيف وترتيب البيت، والعناية بالأطفال. إذن فقد اعتنق أهل سوف هذه العادات الجديدة الوافدة عليهم من اللاجئين كما يطلقون عليهم .

4/ كان العامل الذي صعَّد من قوة التأثير أكثر هو أن العائدين كانوا ممثلين في عدد كبير جدا من العائلات والأسر، ولم يكونوا أفرادا منعزلين، وهذا ما جعلهم يتوغلون في عمق المجتمع ويؤثرون في ثقافته بقوة.

5/ كما أن إقبال المواطنين من أهل سوف على الزواج من بنات الأسر المهاجرة كان له أبلغ التأثير أيضا حيث أن الزوجات الجديدات دخلن إلى عمق الحياة الاجتماعية وغيّرن الكثير من العادات التي لم تعد مناسبة.

لقد أدت الهجرة إلى تغيير جذري في ملامح الثقافة السوفية بالإضافة إلى الاستقلال الوطني، فعودة هؤلاء المهاجرين الذين كانوا يقيمون في الكثير من المدن التونسية إلى أرض سوف، وقد احتكوا وتفاعلوا بالمواطنين، وحملوا معهم الكثير من العادات والتقاليد الجديدة، فأحدثوا تطورا في الذهنيات والثقافات السائدة، على الرغم من أنهم منذ البداية وجدوا نوعا من المقاومة والصدود، إلا أن ثقافة أهل سوف القديمة لم تلبث أن تراجعت أمام اعتناق الشباب للثقافة الوافدة، خاصة إذا علمنا أن شباب سوف في الستينيات والسبعينيات كان يقبل على النهل من ثقافة المهاجرين والكثير منهم تزوج من بنات العائلات المهاجرة، وهو ما ولد نوعا من التلاقح، والانسجام بين الثقافتين، وطور من عادات وتقاليد أهل سوف، بالإضافة إلى هجرة الكثير من الشباب إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، وعودتهم بأفكار وعادات جديدة، كما أن الكثير منهم تزوج من بنات المدن مقر العمل، وهذا ما غيّر من ثقافة أهل سوف وأدخل عليها نوعا من الديناميكية، خاصة إذا عرفنا أن المجتمع السوفي ليس مجتمعا مغلقا بل هو متفتح على جميع الثقافات والحضارات الأخرى، بل وفي بعض الأحيان يكنّ احتراما خاصا للوافد الأجنبي أكثر من احترامه لأبناء بلده أو منطقته، وهذا ما أثار بعض الغيرة من قبل أبناء المنطقة الذين يرون الأجنبي فيها قدر كبير من الاحترام المبالغ فيه أحيانا، ويعاملون بعضهم ـ في أحوال كثيرة ـ باللامبالاة وقلة الاحترام.

وظلت الهجرات تتوافد على سوف ولكن بصورة أقل، فالولاية التي أنشئت منذ 1984 تتطلب أيد عاملة، وكذلك المؤسسات الأخرى، وكان أغلبهم من الوافدين على سوف ـ وإن لم يتأثروا كثيرا ـ فإنهم قد غيّروا في بعض الذهنيات،

وأصبح أهل سوف ـ بفعل تلك الهجرات ـ عقب الاستقلال يكتسبون عادات جديدة مثل : تناول الغذاء على المائدة أو بواسطة الملاعق ونحوها كما اختفت تدريجيا كثير من العادات البدوية بفعل التغيرات الحاصلة في الثقافة .

المبحث الثاني : التغيير في الجانب المعنوي (السلوكي)

إن الحقيقة الوحيدة الثابتة في العالم هي التغيّر فهو مسألة ضرورية لاستقرار نمط الحياة واستمرارها.

وإن الاستقرار دون التغير يشبه محاولة المرء أن يبقي على توازنه فوق دراجة دون تحريك البدالات. وكما أن تحريك البدالات ضروري لاستقرار راكب الدراجة؛ فإن التغيّر ضروري للحفاظ على الأنماط الثقافية[14]، فلا يمكن المحافظة على الأنماط الثقافية واستقرارها دون تغير.

وتلعب الأبعاد السيكولوجية دورا أساسيا في عملية التنمية، فهي ترتبط بدرجة كبيرة بتغيير ذهنية الأفراد وتوفير العدد الكافي ممن يتصفون بالطموح، والرغبة في الإنجاز، والقدرة على التقمص، والتصور[15].

إلا أن أهم عوائق التغير يتمثل في السلوك الإنساني وما يحمله من ثقافة وعادات وتقاليد، قد تقف حاجزا دون تنمية ناجحة، وآفاق مستقبلية واعدة. ولمعرفة تلك العوائق الثقافية للتنمية الاجتماعية نفصل ذلك فيما يلي:

1. يقف بعض أفراد المجتمع من الجديد بحذر كبير، فعادة ما تأتي المخططات التنموية بالجديد، وتقف رواسب السلوك القديم عائقا دون إحداث التغيير المنشود، فلا جديد عندنا، ما نملكه هو قديم، وما نستورده هو الجديد[16].

وإذا حاولنا إسقاط ذلك على ثقافة المجتمع السوفي، وجدنا أن "السوافة" حذرين من كل جديد فهم لا يقبلون على أيّ شيء جديد إلا بعد تردد طويل، وأخذ وعطاء. ومن ميزات الثقافة السوفية أنها تتسم بالمحافظة وقلة المغامرة، والتردد والحيطة، فهم يفسّرون أي شيء جديد بتحاليل كثيرة، وتأويلات عديدة، ولا يقتنعون به إلا بعد أن تفصل التجربة في صلاحيته وجدواه، وعندما يتأكدون من منفعته يقبلون على اعتناقه ويصبح جزءا من ثقافتهم وسلوكهم.

والحقيقة أن الجديد ضروري كما هو الحال بالنسبة للقديم، وأن البشرية لولا الاختراعات الجديدة لما تطورت، فالجديد هو بذرة التقدم والتغير، والكامن داخل القديم، هو الخصوبة والاستمرار، والانبعاث.

2. يقف كبار السن، والمحافظين من التغير الثقافي موقف الحائل دون إحداثه ويعارضون أي عنصر جديد يدخل على ثقافتهم، وهم يمثلون العائق الأساسي لكل تغير وتطور، فقد وقف كبار السن وبعض المحافظين من التعليم الأصلي (المعاهد الإسلامية قديما) بوادي سوف موقفا معارضا، لانتماء أبنائهم لمثل هذا التعليم، إلا أنهم بعد سنوات أدركوا فائدته فراحوا يشجعون أبناءهم للانتماء إليها.

3. هناك فئة تقف في وجه التغير وهي جماعة المصالح التقليدية، فإذا كانت الأحداث الجديدة تهدد عاداتهم العقلية المستقرة بالزوال، فإنهم يتصدون لها، ويعارضونها بشدة كما عارض أهل سوف "البارابول" في بداية عهده، إلا أن الكثير من الشباب كان يقتنع به بقوة فأدخله في جميع المجالات، ولما اقتنع أصحاب المصالح التقليدية بأنه لا يؤذي مصالحهم، ولا يؤدي إلى محو تقاليدهم اهتموا به وصار لصيقا بحياتهم اليومية.

4. من المعروف أن الذين يعارضون القيم الثقافية الجديدة عادة ما يلبسون معارضتهم ثوبا منطقيا، فتراهم يبرّرون معارضتهم تارة بآيات قرآنية، وأخرى بأحاديث نبوية، وثالثة بضرورة المحافظة على عادات الأجداد وتقاليدهم، وفي كل مرة يبرّرون موقفهم المعارض للتغير بحجج واهية.

وهناك العديد من مجالات التغير نستطيع تناولها بإيجاز فيما يلي:

أولا :عادات الطعام

كان أهل الصحراء يأكلون أنواعا معينة من الطعام في الماضي وقد اختفى الكثير منها اليوم، وإذا كانت الصحراء تتميز بزراعة النخيل فإن الاعتماد الأساسي كان على ثمارها، وقد عرف أهل سوف منذ القديم بأنهم يخزّنون التمور في أبنية، يطلقون عليها "الخوابي" (جمع خابية) ويظل التمر سليما من التعفن والجراثيم في هذه الخوابي إلى وقت طويل.

ولكن التغير طرأ في نوع الأطعمة التي أصبح يتناولها المجتمع، فإذا كان التمر هو الغذاء الرئيسي خاصة في فصل الخريف فقلما تخلو مائدة منه، فإن "الكسكسي" هو وجبة العشاء الرئيسية لدى أغلب العائلات السوفية. بالإضافة إلى أن المجتمع شهد تغيّرا في الأطعمة فأصبحت "المقرونة" والأرز و"المرقة" والمقليات كلها أطعمة دخلت حديثا إلى المجتمع.

ومنذ القديم عرفت "وادي سوف" عدة أصناف تقليدية من الأطعمة المختلفة؛ منها: "المَطابيق" التي يسمونها في بعض المناطق "المحجوبة"، ومنها "الشخشوخة" و"الدوبارة" التي انتشرت في الكثير من مناطق الوطن و"السَّفَة"....الخ

وتلتقي المجتمعات الصحراوية كلها تقريبا في تناول مشروب الشاي الذي توارثته الأجيال الصحراوية منذ القديم وظل سائدا إلى اليوم، بالإضافة إلى المشروبات الأخرى منها التقليدي كـ"اللاقمي"[*]، ومنها الذي دخل حديثا كالمشروبات الغازية والمثلجات والعصائر بأنواعها .

وفي المجتمع السوفي تنتشر عادة التدخين إذ إن المنطقة عرفت منذ العهود الغابرة بزراعة التبغ خاصة بناحية " قمار " وما حولها من القرى، حيث كان المنتوج الذي يحتل المرتبة الثانية بعد التمور في العهد الاستعماري، ومن هذا التبغ ما يتم طحنه جيدا ويسمى" الشمّة"، والذي لم يطحن جيدا يسمى "العرعار". ولازالت أسواق الوادي تشهد انتشارا لهذه الأنواع من التبغ التقليدي، وتجد إقبالا ظاهرا عليها رغم منافسة التبغ الحديث لها .

ثانيا: النوم

نظرا لقسوة الطبيعة خاصة في فصل الحرارة إذا علمنا أن المناطق الصحراوية تعيش أغلب فصول السنة في جو ساخن حار، فلا تشهد البرودة إلا شهرين أو ثلاثة أشهر في السنة والبقية حارة. هذه الطبيعة الحارة انعكست على عادات النوم عندهم، فهم ينامون مبكرين وينهضون مع صلاة الصبح، ويعملون طيلة الفترة الصباحية إلى غاية صلاة الظهر، وعادة ما تكون بعد منتصف النهار.

ويلاحظ المرء غلق الأسواق وأغلب المحلات التجارية في فترة ما بعد الظهر، لأن أهل سوف ينامون في القيلولة، ولا يعملون في المساء، وقد يندهش الزائر من هذا السلوك حيث إن الفترة الصباحية تشهد اكتظاظا في الأسواق، ونشاطا حثيثا، بل إنك من كثرة الازدحام يصعب عليك المرور وقضاء حاجاتك، في حين تتقلص الحركة بل وتكاد تنعدم في بعض الأحيان في الفترة المسائية، وكأن مجتمع "وادي سوف" يعمل في الفترة الصباحية فقط. وهذا ينطبق على الأسواق والأعمال الحرة، أما الوظائف الحكومية (البلدية، الولاية، والتعليم) وسائر المؤسسات الأخرى، فهي تعمل في الفترة الصباحية والمسائية بصورة عادية.

وعلى الرغم من أن "وادي سوف" توارثت هذا السلوك أبا عن جد إلا أن تغيره طفيف على الرغم من أن الوادي أصبحت ولاية منذ 1984، ولكن عادات النوم لم تتغير كثيرا، حيث إن هذه العادات مرتبطة بصورة كبيرة بالطبيعة الصحراوية القاسية

التي فرضت على أهلها نوعية من السلوك. من ذلك أن القيلولة للراحة والنوم، خاصة في فصول الحرارة التي تقارب ثلاث أرباع السنة، وتكاد تكون شيئا مقدسا فقل أن تجد من يتجول في أسواق الوادي في الساعة الثانية بعد الظهر خاصة في فصل الصيف، وهذا الأمر لا تتميز به "وادي سوف" فحسب، بل إن أغلبية المدن الصحراوية تخلد إلى الراحة والنوم أثناء فترة القيلولة، وهذا تطبيقا للمثل الشعبي القائل (اتغدى واتمدى حتى برمشة عين، واتعشى واتمشى حتى بخطوتين).

ثالثا : اللباس

يعتبر اللباس واحدا من مظاهر التغير الثقافي الأكثر وضوحا وبيانا، حيث إننا نستطيع عن طريق تغير لباس المجتمع أن نكتشف المدى الحاصل لهذا المجتمع من التغير وعمقه، ومدى تأثيره على الأفراد.

وقد توصل "مورو بيرجر" أثناء دراسته للمجتمع العربي إلى أنه من المعتاد أن نجد ثلاثة أنواع من ملابس الرجال في معظم المدن العربية؛ الجلابية التقليدية والزي الغربي والبيجامات المخططة التي يرتديها الشباب، أما الآن فيقل عدد الصبية التي تلبس البيجامات، إذ تقفز من الجلابية رأسا إلي الجاكيت والبنطال، واختفى الطربوش وأغطية الرأس الشرقية الأخرى اختفاء تاما[17].

وهذا ما نلاحظه في المجتمع الصحراوي فقد بدأت تختفي الملابس التقليدية وتحل محلها البدلات الأوربية، والفرنسية على وجه الخصوص.

وقد تميز أهل سوف منذ القديم بلباسهم التقليدي والمتمثل في "القندورة" (الجبة)، واللحفة (العمامة)، والسروال العربي(تفرقة بينه وبين السروال الغربي)، وهو عادة ما يكون متسعا، وتسهل الحركة داخله، وقد حاول الفرنسيون إدخال ملابسهم من بدلة، وقبعة، وأحزمة، ولكنها وجدت معارضة كبيرة من طرف الأهالي، ولعل أول الملابس الغربية التي فرضت على أهل المنطقة بالقوة تمثلت في الملابس العسكرية، ففي زمن ثورة الشيخ الهاشمي الشريف عامي 1917-1918م حيث تم تجنيد الشباب بالقوة وفرضوا عليهم الملابس العسكرية، وقد شعر الكثير منهم بالغربة داخلها، وها هو أحد الشعراء يصف ذلك في قوله:

بعد اللِّي زَاهُوا الايام غَرُّوا بِيَّا * * * لِبْسَتْ الطُّوِيَلةْ وَدِرِتْ حَزَّمِيَّةْ

وهو كناية على أنهم غرّروا به فلبس السروال الطويل، وارتدى الحزام رغما عنه.

وظل الصراع قائما بين اللباس التقليدي للمنطقة واللباس الوارد من المستعمرين، وقد رفض الكثير من الأهالى ارتداءه، وبعد الاستقلال، ونهوض المدينة من حالة

الركود. تغيرت الملابس، وصار أغلب الشباب مقتنع بالملابس الواردة من الغرب كالبدلة والسروال وربطة العنق وحتى القبعة، حيث تغيرت ملابس المجتمع السوفي بعد الاستقلال، ولم يعد السروال مجلبة للسخرية كما كان في العهد الاستعماري .

كما تغير اللباس النسائي فلم يعد "الحولي" محل عناية بل أصبحت المرأة السوفية تتقلد بالملابس العصرية كالفساتين الجميلة، والكعب العالي، ولم يعد ذلك مثار سخرية أو استهجان.

لقد تغيرت ملابس أهل "سوف" كما تغيرت ملابس أهل الصحراء الشرقية بصورة عامة، فلا نجد في بسكرة اليوم من يرتدي "القندورة" والسروال العربي، والعمامة إلا نادرا من البدو الذين يزورون المدينة من القرى المجاورة، كما اختفت العمامة وأغطية الرأس التقليدية وحل محلها "الشابو"، والقبعة خاصة بين الشباب.

والحقيقة أن الملابس التقليدية لم تختف تماما فالرجل السوفي يرتدي القندورة والسروال العربي والقميص في بيته، وفي أوقات الراحة خاصة في فصول الحرارة، ولكنه عندما يذهب لقضاء حوائجه فإنه يرتدي الملابس العصرية كالبدلة والقميص والسروال و الحذاء العصري المستورد من دول الغرب.

أما المرأة السوفية فهي أيضا ترتدي الملابس التقليدية في البيت، ولكن عند خروجها ترتدي الملابس العصرية، ولكن في السنوات الأخيرة وعند انتشار الحجاب الإسلامي فإن أغلب النساء صرن يرتدينه، وقد وحّد الحجاب الإسلامي كل نساء الوطن الجزائري من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، بل عمل على توحيد الأمة الإسلامية كافة.

رابعا: دورة الحياة

أ/ الميلاد : الكثير من العادات المرتبطة بظاهرة ميلاد الأطفال تغيّرت وتبدلت إلى عوائد وطقوس أخرى، فقد كانت الولادة تتم في البيت قديما، ولم يعرف المجتمع الصحراوي الولادة بالمستشفى إلا حديثا، كما تبدلت العوائد المرتبطة بذلك، فلم تعد القابلة التقليدية تؤدي دورا في عملية الولادة ولا حتى أم الزوج، حيث صار المستشفى يؤدي ذلك الدور.

وهذا لا يعني أن كل المجتمع الصحراوي يعرف هذه الطريقة الحديثة في عملية الولادة، فمازال البدو خارج المدن، يعملون بتقاليد الولادة القديمة، والتي تتم في البيت عادة. وبعد الولادة تعود الزوجة إلى البيت من المستشفى رفقة أمها وأم زوجها إن كانتا موجودتين، وبعض الأقارب الآخرين كالعمة والخالة وتقيم أم

الزوجة مع ابنتها لمدة أسبوع أو أكثر، حيث تدرّبها على كيفية رعاية الطفل وإرضاعه وتنظيفه.

كما تقوم الأم بتحضير بعض الحلويات والمرطبات "كالبسيسة" للضيوف الذين يتوافدون على الزوجة للتهنئة بالمولود، وعادة يقوم الوافدون بتقديم هدايا للزوجة مثل الملابس للرضيع، أو نقود أو أشياء أخرى. وهذه العادة لم تتغير كثيرا إذ حافظ المجتمع الصحراوي عليها إلى يومنا هذا ولكن الذي تغير فيها هو موضوع الهدية فقد كانوا قديما يهدون البيض، والدجاج واللحم والحمام والخضر وحليب المعز، ولكن حاليا أصبحت الهدية تتمثل في ملابس الرضيع أو النقود أو المرطبات. وبعد مرور أسبوع على ميلاد الطفل ينظم احتفال يستدعى إليه جميع أفراد العائلة والأقارب والأصدقاء وهو يسمى باحتفال "اليوم السابع"، وفي "وادي سوف" يتم تقديم كسكسي "النافس" وهو عبارة عن ثريد باللحم و"الكابو" يخلط مرقه بالحلبة والكثير من " الحشاوش " الأخرى (أعشاب طبية، بهارات ...) و"الدهان" (سمن حيواني) وغيره، وهي نفس الأكلة التي تتناولها المرأة أثناء مرحلة النفاس .

وعلى الرغم من التطور الحاصل في ثقافة المجتمع إلا أن بعض العادات القديمة مازالت سائدة إلى اليوم، ومنها تفضيل الذكر عن الأنثى، فبعض العائلات تنحر الذبائح بميلاد الذكر، ولا تكاد تفعل مع ولادة الأنثى.

كما أن هناك عادة قديمة تتمثل في أن سرّة المولود يتم وضعها في قطعة قماش ويحفرون لها حفرة صغيرة بقرب المسجد يدفنونها هناك، أو بالقرب من المدرسة وذلك تيمنا بوصول المولود إلى المدرسة أو حفظ القرآن الكريم.

ب/الزواج : كما تغيرت عادات الزواج، فقد كانت الأسرة قديما تعيش مع امتداد أفرادها، والتي تجمع بين الجدود والآباء والأحفاد، وتغيرت في السنوات الأخيرة بسبب ضيق المساكن وازدياد الكثافة السكانية وكذا البطالة المتفشية في أوساط المجتمع بنسبة كبيرة تتجاوز 70 %. فقد أصبح الزوج والزوجة يعيشون في بيت مستقل، وقلما نعثر عن الأسر الممتدة في مجتمع وادي سوف، ولكن بقايا الامتداد يمكن أن تلاحظ حيث يعيش الوالد مع ابنه في حال كبره وعجزه، كما تعيش الأم مع ابنها في حال عجزها أووفاة زوجها. إلا أن أغلب العائلات تعيش بمفردها وتتم تقاليد الزواج وفقا للمراحل التالية:

1/ مرحلة التعارف: في البداية تتم الخطوبة حيث تختار عائلة العريس امرأة من أقاربها أو من الجيران، ويقوم العريس بلقاء خطيبته وينفرد بها صحبة محرم، ويتم خلال أول لقاء تبادل وجهات النظر واختيار كل واحد للطرف الآخر. ثم تتكرر

اللقاءات، وعادة ما يمنح الخطيب مبلغا ماليا محترما يتجاوز الخمسة آلاف دينار جزائري، خلال اللقاء الأول إذا أعجبته الخطيبة، ووافق على الارتباط بها .

2/ مرحلة الخطوبة : بعد أن يوافق الطرفان على الارتباط ببعضهما تتم الخطوبة بشكل رسمي، وهناك عادة انتقلت إلى المجتمع السوفي من مدن الشمال وهي (الخاتم)، فلم يكن العروسان يعرفان هذه العادة قديما، ولكنها حاليا انتشرت في جميع الأوساط، وأصبحت من مراسيم الزواج.

وكما أن الشيء الذي تغير من الماضي إلى الحاضر هو عنصر ثقافي جديد يتمثل في القيمة المالية التي يدفعها العريس إلى خطيبته، ففي القديم كان العريس هو الذي يتكفل بتجهيز عروسه من جميع النواحي (الملابس، الحلي، الفراش)، وحتى الخضر والفواكه، من جميع لوازم العرس الأخرى، إلا أنه طرأ تغيير في هذه العادة حيث صار العريس يمنح مبلغا ماليا لعروسه لتقوم بتجهيز نفسها وتشتري ما تراه مناسبا لها.

وإذا كان المجتمع الحضري وفي قسنطينة بالذات يتم عملية تحديد القيمة المالية (الشرط) التي يدفعها العريس ما بين الطرفين، وفي بعض الأحيان تصبح كأنها عملية مزايدة ومناقصة (أهل العريس ينقصون، وأهل العروس يطالبون بالمزيد)، فإن مجتمع "وادي سوف" ترك أمر تحديد القيمة المالية للعريس حسب مقتضيات الحال ودرجة اليسر حيث يتم تحديد المبلغ من طرف أهل العريس دون تدخل من أهل العروس.

وبعد ذلك يدفع العريس المبلغ الذي باستطاعته دفعه إلى عروسه لتجهز نفسها كما أنه خلال مرحلة الخطوبة يقوم بالنفقة على خطيبته، فيجزل لها العطاء حسب قدرته، طبعا في مختلف المناسبات فإذا حل العيد أهدى لها الفساتين والعطور اللائقة به، وهكذا تقام الزيارات بين العائلتين في كل المناسبات .

المبحث الثالث : التغيير في الجانب المادي (التكنولوجي)

تمهيد:

إذا كنا لا نلاحظ التغيرات الحاصلة في الأنماط الثقافية بصورة جلية واضحة، فالتغير الحاصل في الجانب التكنولوجي يعد واضحا وأكثر تميزا.

فقد عرفت الإنسانية على مرِّ تاريخها الطويل الكثير من التغيرات التي طرأت على الجانب التكنولوجي، وأدت بالتالي إلى تغير الأنماط الثقافية. فاختراع الأقمار الصناعية أدى إلى ربط العالم ببعضه، واختراع الإنترنت ووسائل المواصلات الحديثة وما إليها كلها جعلت من العالم قرية صغيرة، وأدت إلى تغيرات جذرية في الأنماط الثقافية التقليدية. فالتغير الحاصل في العامل التكنولوجي كما يوضحه

(ماكيفر) عمل على تضييق في النظم والأفكار وانحطاط في الشعائر، وتقدم المنهج النفعي والعلماني في معالجة الطبيعة وفصل الحياة الثقافية مما يحددها بطرق العلم والتكنولوجيا والنمو في درجة الجماعية، أو التأثير والاستقلال الإنساني(18).

وإذا حاولنا حصر التغيرات الحاصلة في الجانب التكنولوجي وأثرها في ثقافة المجتمع الصحراوي فإننا نوجزها في ما يلي :

1/ وسائل النقل: لم يعد الحمير والجمال والبغال من وسائل النقل في المجتمع الصحراوي، فقد شهدت العقود الأربعة الأخيرة تغيرات جذرية في وسائل النقل، فقد دخلت السيارات وربطت القرى النائية والمداشر البعيدة عن بعضها البعض وخلقت جوا من العلاقات الاجتماعية بين مختلف أنحاء القرى والمدن. وصار اليوم بإمكان الأستاذ مثلا أن يدرس بجامعة بسكرة ويتنقل في اليوم نفسه إلى التدريس في جامعات أخرى بعيدة عنها بعشرات الكيلومترات، كما أصبح باستطاعة أعضاء المجالس البلدية والولائية أن يجتمعوا بمقر ولايتهم التي تبعد عن إقامتهم بمئات الكيلومترات، وأن يطرحوا مشاكل بلدياتهم ويعودوا إلى بيوتهم في اليوم نفسه.

2/ وسائل الاتصال : وعلى مستوى الاتصال فالأقمار الصناعية جعلت من العالم قرية كبيرة، فما يحدث حاليا في الصين أو الهند أو فلسطين يطلع عليه أبسط مواطن في أي قرية نائية، وهذا لاشك أن له تأثير عميق على أهم العناصر الثقافية التي يتكون منها المجتمع الصحراوي.

وكذلك نجد الإنترنت الذي غزا القرى والمداشر، وقد وفّر الكثير من المعلومات، وعمّق في ثقافة المجتمع، فصار الطالب اليوم يستعين بالمعلومات الواردة فيه لإنجاز أي بحث يفيده.

كما لعبت الإذاعات المحلية أدوارا بالغة الخطورة في التأثير على المجتمع، فحاولت إحياء تراثه وعرفت الناس بمشاكلهم، وحاولت أن تنسق الجهود وتوحد الأفكار والثقافات، وتطلع العامة بما يدور حولهم من أنشطة وأعمال ثقافية مختلفة، كما كان لترويج السلع، والإشهار والتعريف بها دور لعبته الإذاعات المحلية بعناية فائقة إلا أن هذا التغير، والعناصر الجديدة الوافدة من ثقافات أخرى لا شك أنها تلقى معارضة شديدة من قبل المجتمع أو بعض الجماعات فيه في بداية انتشارها .

وفي عهد الاستعمار الفرنسي عارض أهل سوف ارتداء البدلة costume واعتبروها تمثل الكفار فقط، إذ إن الأهالي كانوا يرتدون "القندورة" أو "القشابية" و"البرنوس"، ولكنها بعد سنوات طويلة واعتناق الشباب لها صارت من العناصر الثقافية المقبولة عندهم.

ولا شك أن الأفكار الجديدة ستلقى معارضة شديدة خاصة فيما يتعلق بالإبداع والابتكار، وسوف يتعرض أصحابها إلى الاستهجان والسخرية بل وحتى العقاب النفسي والبدني.

3/ تغير الأدوات والأواني المستخدمة في المطابخ وإعداد الطعام وتناوله وحفظه، فقد أدخلت على المجتمع الصحراوي خلال الأربعة عقود الأخيرة الكثير من الأدوات والأواني المختلفة الأشكال والأنواع مما أثر على نوعية الأطعمة، وأصبحت مختلفة عما عرفته هذه المجتمعات في العهد الاستعماري، فإذا كان "الطاجين" المصنوع من الطين، والقدر المصنوع من الألمنيوم وغيره من الأدوات التي كان المجتمع يستعملها لإعداد غذاءه اليومي، وإذا كان المجتمع يخزن الخضر والفواكه في الأماكن الباردة، نوعا ما وقد يبلل بعض الخِرق ويضعها فوقها لكي لا تتعفن بفعل درجة الحرارة، وكان الماء يحفظ في القربة، والزير، والقلّة، فلم يعد أثر لكل ذلك في السنوات الأخيرة فقد صارت الثلاجة هي الحافظة لكل الخضر والفواكه واللحوم، وصار الماء البارد في متناول جميع أفراد المجتمع في كل مكان يقصدونه، فقد انتشرت حنفيات لتبريد المياه في كل الأسواق والساحات العامة خاصة في فصل الصيف.

وأغلب العائلات تستعمل اليوم أحدث آلات الطبخ من فرن كهربائي وعصارات، وآلات لفرم اللحم وطحن القهوة، كما احتلت الثلاجة صدر البيت فلم يعد هناك بيت صحراوي لا توجد به ثلاجة. أما المكيفات الهوائية فرغم انتشارها الكبير إلا أنها ظلت حكرا على العائلات الثرية، وبعض متوسطي الحال، ولم يكن في وسع الفقراء اقتناؤها إلا بعد أن انخفض سعرها في السنوات الأخيرة.

ـ الهوة الثقافية (أو التخلف الثقافي):

إن التغيرات الحاصلة في الأدوات والآلات التكنولوجية كان انعكاسها واضحا على ثقافة المجتمع الصحراوي، فقد عملت على التغير في الحياة القائمة والبناء الاجتماعي والنظم والثقافة السائدة، إلا أن ذلك لا يعني أن تساير الثقافة في جانبها المعنوي كل التغيرات الحاصلة في الجانب المادي والتكنولوجي، فالمجتمعات النامية بصورة عامة تعاني من التخلف الثقافي، بين جانبي الثقافة المادي والمعنوي، فالذي نلاحظه أن التقدم التكنولوجي كان أكثر سرعة في تغيره من التقدم الحاصل في القيم والثقافة، وهذا ما جعل هذه المجتمعات تعاني من هوّة ثقافية.

وهذا التخلف ظاهر للعيان، فالكثير من المظاهر التي تصادفنا في مناسبات عديدة، فمثلا الرجل الذي يركب أرقى أنواع السيارات، ويقودها مع كثير من التهور، وإذا تعطلت لأي سبب عجز عن إصلاحها، هذا الرجل متخلف، وإذا

أخذها إلى ميكانيكي فشل هو الآخر في علاجها؛ لأن ثقافة المجتمع المعنوية لم تساير الجانب المادي والتكنولوجي.

فالمجتمع الصحراوي قد يتقبل أفراده أي مخترع جديد أو آلة أو أي أداة يتم صنعها في أوروبا، ولكنه سوف يعارض أي فكرة أو قيمة أو عنصر ثقافي وارد من الغرب. والتطور الحاصل في الجانب التكنولوجي وتخلف الجانب الثقافي خلق نوعا من التفكك وعدم الانسجام بين الإنسان والتكنولوجيا، وأدى إلى الكثير من الآثار التي نشهدها اليوم في المجتمع الصحراوي. منها أن هذه المخترعات أدت إلى تقييد حرية الإنسان، وبذلك يصبح المواطن ليس أمامه سوى ما يقدمه له التطور التكنولوجي، وإذا حصل هذا فإن سعادة الإنسان قد ارتبطت بتكنولوجيا معينة، وربما يكون ذلك مصدر شقاء أكثر منه مصدر سعادة [19].

وفعلا فهناك الكثير من الأمثلة التي تدل على تبعية الإنسان لآلته، فذلك الذي يستعمل الناسخة وقد يرتبط رزقه اليومي بها فإذا تعطلت فإن رزق عياله يصبح مهددا، وكذلك الحال بالنسبة للكثير من الأمور الأخرى التي يرتبط فيها الإنسان بالآلة فتصبح حريته مهددة وفي كثير من الأحيان يصير تابعا للآلة وليس العكس.

فالمكيفات الهوائية المنتشرة في ربوع الصحراء وخاصة في المدن الكبيرة كـ "بسكرة" و"وادي سوف" و"ورقلة" و"الاغواط"و"غرداية" كلها جعلت من الإنسان تابعا، لها فلو تعطلت عن العمل في فصل الحرارة؛ فان الإنسان يضيع بعد أن ارتبطت حريته بها ويصير مقيدا لها، لا يستطيع فكاكا من تأثيرها السحري. ولو تأملنا أجدادنا كيف كانوا يعيشون في الصحراء بدون هذه التجهيزات، لأفزعنا الواقع الذي نعيشه حيث أصبحت حياتنا وآمالنا وحتى إبداعاتنا مرتبطة بهذه التكنولوجيا اللعينة. فأين هو نصيب الحرية الذي أصبحنا نتمتع به وقد أدت الآلة إلى تقليصه إلى أبعد الحدود.

المبحث الرابع : التغير في الجانب الابستمولوجي (المعرفي)

تمهيد

يعتبر التغيير الحاصل في الجانب المعرفي بالغ الأهمية؛ لأنه يرتبط بالجانب المعرفي ومدى التطور الحاصل فيه. وسوف نتناول هذا الجانب من ثلاث زوايا وهي: التعليم، الإعلام، والتراث الشعبي.

1/ التعليم: شهدت مدن الصحراء الشرقية نهضة تعليمية معتبرة، وارتفعت نسبة المتعلمين أضعافا، ففي عقد الستينيات مثلا لا نجد في "وادي سوف" إلا متوسطة

واحدة وهي إكمالية ابن باديس، وحوالي أربعة مدارس ابتدائية، ولا وجود لثانوية واحدة. وتطور قطاع التعليم خلال العقود الثلاثة، فبلغ عدد المؤسسات التعليمية في إحصائيات 99/98 إلى حوالي 375 بين مدرسة ابتدائية وإكمالية وثانوية ومتقنة، كما وصل عدد المتمدرسين للسنة الدراسية 2000/99 في مختلف المراحل المذكورة آنفا بين إناث وذكور إلى 158580 تلميذ منهم 74132 أنثى.

وهذا يدل على أن نسبة تعليم الإناث تقارب النصف أي أن هناك تساو بين تعليم الإناث والذكور(**)، وهذا يدل على ارتفاع الوعي وانتشار التعليم في كل الأوساط.

وإذا حاولنا أن نجري مقارنة بين عدد السكان وعدد المتعلمين وجدنا أن النسبة قد ارتفعت.

2/ الإعلام: من المعلوم أن المجتمعات الصحراوية كان أفرادها يلتقون قديما بالأسواق الأسبوعية والمساجد وحتى المقاهي ويتبادلون المعلومات والمعارف التي تخصهم، وكانت تلك الأسواق بمثابة المنتديات التي يتعارف خلالها الأشخاص ويتناقلون الأخبار، ولم يكن التلفزيون قد انتشر بعد، فكانت الإذاعة غير مسموعة إلى حدّ كبير في عقد الستينات.

وكان إعلان الزواج والوفاة والضياع عن أي شيء مهم يتم بواسطة شخص يسمونه " البرَّاح " فينتقل إلى الأسواق والأماكن التي يتجمع فيها الناس بكثرة ويقوم بالضرب على الطبل ونشر الإعلان الذي يردده بصوت مرتفع، حيث يصل إلى أقصى المدينة فكان "البراح" بمثابة الإذاعة المتنقلة التي تخبر الناس عن كل الأمور التي ينبغي إشهارها وإعلام الناس بها، إلا أن هذه الصورة تغيّرت حيث اختفى "البرّاح" من الأسواق وحلت محله وسائل الاتصال الحديثة كالتلفزيون والإذاعات المحلية التي أصبحت منتدى للثقافة والإعلان، ونشر المعرفة.

وأدت هذه الإذاعات دورا كبير الأهمية في تطوير الوعي الثقافي وتغيير الكثير من العادات والتقاليد والقيم.

ونظرا لانتشار الصحافة المكتوبة خاصة الحرة منها؛ فقد عملت على تغيير الكثير من الذهنيات، وكان للإعلام الآلي والإنترنت والأقمار الصناعية وانتشار الهاتف النقال دور في تغيير الأنماط الثقافية وإدخال الكثير من عناصر الثقافة الحديثة على العادات القديمة فكان تغييرها أمرا لا مفر منه.

إذاعة "سوف" : كسائر الإذاعات المحلية التي انطلقت في البث منذ بداية عقد التسعينيات، فإن إذاعة "سوف" تم تدشينها في 21/نوفمبر/1996 وبدأت البث بأربع ساعات يوميا ثم تطور البث إلى ثماني (08) ساعات ابتداء من 5 جويلية 1998.

كما أن المساحة البث المغطاة تطورت من عشر كيلومترات إلى أكثر من المائة، أما برامجها فهي متنوعة منها الأخبار المحلية، وقضايا المجتمع، والإرشاد الفلاحي، وأحداث الأسبوع، وفي رحاب القانون، والملف الطبي، والواقع الثقافي. بالإضافة إلى اللقاءات والحوارات التي يجريها فريق الإذاعة مع المسؤولين، والمثقفين.

وتعدّ إذاعة "سوف" مثلا للنشاط الثقافي فهي مصدر إشعاع، وقلعة حصينة للكثير من المثقفين، واستطاعت أن تثير رغبة المجتمع في المشاركة، وأنارت درب الكثيرين بنصائحها العلمية، ومواقفها العملية.

هكذا عملت الإذاعة المحلية على نشر الوعي الثقافي وفي أغلب الأحيان كانت تعمل على تصحيح الكثير من القيم التي توارثها الأبناء عن الآباء، كما أدخلت العديد من القيم الجديدة على ثقافة المجتمع كالقيم الصحية والثقافة القانونية والوعي الاجتماعي.

3/ التراث الشعبي: لقد عملت الأجيال المتعاقبة على تراكم معرفي كبير خاصة فيما يتعلق بالشعر الشعبي والقصة، والأمثلة والحكم، وعبر العصور المختلفة تميزت الثقافة الشعبية بوادي "سوف" بالكثير من الخصائص والمميزات التي جعلتها تحتل صدارة الثقافات الشعبية على مستوى المجتمعات الصحراوية.

ولعل أسباب ذلك تعود إلى أن أهل "سوف" عرفوا منذ القديم بأنهم مولعون بالغناء والحكايات، والأساطير وخاصة قصص البطولات كقصة أبي زيد الهلالي وخليفة الزناتي حتى أن خليفة هذا سميت باسمه مدينة كبيرة هي بلدية "حاسي خليفة" وتقع في شرق مدينة الوادي حيث تبعد عنها بحوالي 30 كلم في اتجاه الحدود التونسية.

وقد دأب أهل سوف على الاستمتاع بالحكايات الشعبية حتى أن أسواقهم لا تخلو من المداحين الذين يسردون قصص البطولات من معارك علي بن طالب إلى مغامرات الهلاليين، وعادة ما يتجمهر الشباب بكثافة لسماع هذه القصص من المداحين الذين يحكونها بأسلوب جذاب بمرافقة الطبل والكمنجة، وقد رسبت هذه الطريقة أسلوب الحكايات الشعبية، وإن كانت قد شهدت في السنوات الأخيرة انحسارا بسبب التطور التكنولوجي، وانشغال الناس، وزيادة الكثافة السكانية، إلا أن الوسائل الأخرى حلت محل طريقة السرد هاته، كالتلفزيون والهوائيات المقعرة

وغيرها من وسائل الاتصال، وعن طريق إذاعة سوف أصبح المواطن يستمع إلى الأشعار الشعبية من أفواه مؤلفيها مباشرة .

. الهوامش :

(1) صلاح الجوهري وآخرون، ميادين علم الاجتماع، الطبعة الثالثة، القاهرة ،1974، ص 302.

(2) خليل أحمد خليل، المفاهيم الأساسية في علم الاجتماع، الطبعة الأولى، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص74 .

(3) نفس المرجع، نفس الصفحة.

(4) نخبة من الأساتذة المختصين، معجم العلوم الاجتماعية، تصدير ومراجعة إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالاشتراك مع اليونسكو، 1975، ص 200.

(5) خليل أحمد خليل، مرجع سابق، ص ص84، 85.

(6) Joseph Sumpf et Michael Hugues, Dictionnaire de sociologie, librairie la rousse, Paris, 1972 p75.

(7) محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979، ص 111.

(8) : Joseph Sumpf et Michael Hugues ,opcit P75.76.

(9) مصطفى الخشاب، دراسة المجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975، ص188.

(10) معجم العلوم الاجتماعية، مرجع سابق، ص 165.

(11) نبيل السمالوطي، علم الاجتماع ، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1978، ص14 .

(12) عاطف وصفي، الانثربولوجيا الثقافية، بيروت، دار النهضة العربية، 1971، ص102.

(13) محمد الفرا، نظرية الحتمية عند بن خلدون، مجلة الجيل، العدد 12، ديسمبر 1983، ص32.

(14) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1997، ص151.

(15) عادل مختار الهواري وآخرون، قضايا التغير والتنمية الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1998، ص184.

(16) علي زيعور، التحليل النفسي للذات العربية، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983، ص31.

(*) اللاقمي: عصير يستخرج من لب النخيل .

(17) مورو بيرجر، العالم العربي اليوم، ترجمة محيي الدين محمد، دار مجلة شعراء، بيروت، 1963، ص 340.

(18) ماكيفر، المجتمع، ص479.

(19) أبو بكر مصطفى بعيرة، بعض مشكلات نقل التكنولوجيا من الدول المتقدمة إلى الدول النامية، نقلا عن : على الحوات، نقل التكنولوجيا والمجتمع، كلية التربية، جامعة الفاتح، 1981، ص109.

(**) أذكر أنه في سنة 1968 عندما كنت أدرس بالمعهد الإسلامي وكان عدد تلاميذه يتجاوز 500 كانت تدرس معنا فتاة واحدة فقط وكنا في أوقات الراحة نحوم حولها ولا نصدق أن فتاة تدرس معنا فعلا.